نام کتاب: تاریخ الغیبة الصغری

پدیدآور: صدر، محمد

تاریخ وفات پدیدآور: ۱۴۱۹ ه. ق

موضوع: غیبت امام مهدی- علائم ظهور- حکومت امام مهدی

زبان: عربی

تعداد جلد: ۴

ناشر: دار التعارف للمطبوعات

مکان چاپ: بیروت(لبنان)

سال چاپ: ۱۴۱۲ ه. ق

نوبت چاپ: ۱

ص:۷

الجزء الاول

[مقدمة التحقیق]

کلمة الدار

من دواعی الاعتزاز أن تثابر «دار التعارف للمطبوعات»، بوعی و إیمان، و جلد و حزم فی أداء رسالتها الثقافیة الاسلامیة بعطاء ناضج، و أقلام کفؤة حیة، و محلولات فکریة جریئة تنسجم و طبیعة الظروف المعاشة لواقعنا الاسلامی.

و الآن، و فی امتداد ذلک الخط الذی رسمته مکتبتنا لنفسها فی تبلیغ أهدافها و دعوتها، نقدم للقراء الکرام کتابا جدیدا، یعالج موضوعا حساسا من أشد المواضیع صلة بحیاتنا الفکریة و التاریخیة، و من أبرزها أهمیة فی کیان المجتمع من حیث بنائه الفکری و التاریخی.

و لما كانت قضية الامام المهدى من القضايا الفكرية الحساسة فى الاسلام التى ترتبط ارتباطا وثيقا بالجانب العقيدى من تفكيرنا الاسلامى بالنظر إلى ما أثير حولها من علامات الاستفهام و من الشكوك الكثيرة التى انطلقت لتناقش هذه العقيدة و تحاكمها على ما تحسبه علما و تحليلا و اجتهادا.

لذلك شعرت دار التعارف بالحاجة إلى أن تقدم للقراء هذا الكتاب الذى يحاول أن يعالج الفكرة و يؤرخ لها و يدفع الشبهات عنها لتعود- كما هى فى واقعها الأصلى- حقيقة ناصعة فى أفكار

ص:٨

الجيل المعاصر الذى يعيش القلق و الحيرة و التطلع نحو المصلح المنتظر الذى يملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملئت ظلما و جورا.

أما قلم الكاتب فهو من الأقلام الاسلامية التى أعطت الفكر الاسلامى و أغنته بالكثير من الابحاث و الأحاديث الرائعة.

و قد عرفه القراء فى أكثر من كتاب و فى أكثر من بحث كاتبا واعيا يعيش الاسلام فكرا و أسلوبا و حياة.

و نحن على ثقة بأن هذا الكتاب سوف يؤكد بنفسه على أنه يحمل بين أضلاعه فكرا، و مادة، و منهجا و أسلوبا، و حتما سوف ينال رضا القراء و إعجابهم.

و أملنا باللّه سبحانه أن نكون قد وفقنا إلى حسن الاختيار، و أداء الرسالة، و منه نستمد التوفيق.

ص:٩

الإهداء

سيدى و مولاى و مولى المؤمنين، بقية اللّه فى أرضه و المذخور لنشر عدله فى بريته ... الحجة بن الحسن المهدى (ع).

ارفع إلى مقامك السامى .. بكل خشوع .. هذا المجهود المتواضع ..

عسى أن يخدم- بما بذلت فيه من مجهود- قضيتك الكبرى التى كنت و لا زلت و ستبقى الرائد الأول لرفع رايتها و غرس بذرتها و جنى ثمارها.

و غاية أمله- يا سيدى- و فخره .. أن يحظى منك بنظرة رحمة و لمسة دعاء .. و أن تراه عملا خالصا مخلصا نقيا من شوائب الانحراف ..

و خطوة موفقة لانتظار مستقبلك .. مستقبل الاسلام .. حين تملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملئت ظلما و جورا ..

المؤلف

ص:١١

بحث حول المهدى

ص:١٣

مقدمة تفضل بها سماحة سيدنا الاستاذ آية اللّه العظمى السيد محمد باقر الصدر دام ظله الشريف تبريكا لهذه الموسوعة الشريفة.

وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ ۵: القصص.

ص:١۵

ليس المهدى تجسيدا لعقيدة اسلامية ذات طابع دينى فحسب، بل هو عنوان لطموح اتجهت إليه البشرية بمختلف أديانها و مذاهبها، و صياغة لإلهام فطرى، أدرک الناس من خلاله- على الرغم من تنوع عقائدهم و وسائلهم إلى الغيب- أن للانسانية يوما موعودا على الأرض.

تحقق فيه رسالات السماء بمغزاها الكبير، و هدفها النهائى، و تجد فيه المسيرة المكدودة للانسان على مرّ التاريخ استقرارها و طمأنينتها، بعد عناء طويل. بل لم يقتصر الشعور بهذا اليوم الغيبى و المستقبل المنتظر على المؤمنين دينيا بالغيب، بل امتدّ الى غيرهم أيضا و انعكس حتى على أشدّ الإيديولوجيات و الاتجاهات العقائدية رفضا للغيب و الغيبيات، كالمادية الجدلية التى فسّرت التاريخ على أساس التناقضات، و آمنت بيوم موعود، تصفى

ص:١۶

فيه كل تلک التناقضات و يسود فيه الوئام و السلام.

و هكذا نجد ان التجربة النفسية لهذا الشعور التى مارستها الانسانية على مرّ الزمن، من أوسع التجارب النفسية و أكثرها عموما بين أفراد الانسان.

و حينما يدعم الدين هذا الشعور النفسى العام، و يؤكّد ان الأرض فى نهاية المطاف ستمتلأ قسطا و عدلا بعد أن ملئت ظلما و جورا، يعطى لذلک الشعور قيمته الموضوعية و يحوله الى ايمان حاسم بمستقبل المسيرة الانسانية، و هذا الايمان ليس مجرد مصدر للسلوة و العزاء فحسب، بل مصدر عطاء و قوة، فهو مصدر عطاء، لأن الايمان بالمهدى ايمان برفض الظلم و الجور حتى و هو يسود الدنيا كلها، و هو مصدر قوة و دفع لا تنضب، لأنه بصيص نور يقاوم اليأس فى نفس الانسان، و يحافظ على الأمل المشتعل فى صدره مهما ادلهمّت الخطوب و تعملق الظلم، لأن اليوم الموعود، يثبت ان بامكان العدل ان يواجه عالما مليئا بالظلم و الجور فيزعزع ما فيه

ص:۱۷

من اركان الظلم، و يقيم بناءه من جديد، و ان الظلم مهما تجبّر و امتدّ فی ارجاء العالم و سيطر على مقدراته، فهو حالة غير طبيعية، و لا بد ان ينهزم. و تلک الهزيمة الكبرى المحتومة للظلم و هو فی قمة مجده، تضع الأمل كبيرا أمام كل فرد مظلوم، و كل أمة مظلومة فی القدرة على تغيير الميزان و اعادة البناء.

و إذا كانت فكرة المهدى أقدم من الاسلام و أوسع منه، فان معالمها التفصيلية التی حددها الإسلام جاءت أكثر اشباعا لكل الطموحات التی انشدت إلى هذه الفكرة منذ فجر التاريخ الدينی، و اغنى عطاء و اقوى إثارة لأحاسيس المظلومين و المعذبين على مرّ التاريخ و ذلک لأن الإسلام حوّل الفكرة من غيب إلى واقع، و من مستقبل إلى حاضر، و من التطلع الى منقذ تتمخض عنه الدنيا فی المستقبل البعيد، المجهول إلى الايمان بوجود المنقذ فعلا، و تطلعه مع المتطلعين إلى اليوم الموعود، و اكتمال كل الظروف التی تسمح له بممارسة دوره العظيم،

ص:۱۸

فلم يعد المهدى «عليه السلام» فكرة ننتظر ولادتها، و نبوءة نتطلع إلى مصداقها، بل واقعا قائما ننتظر فاعليته و انسانا معينا يعيش بيننا بلحمه و دمه نراه و يرانا، و يعيش مع آمالنا و آلامنا و يشاركنا احزاننا و افراحنا، و يشهد كل ما تزخر به الساحة على وجه الأرض من عذاب المعذبين و بؤس البائسين و ظلم الظالمين، و يكتوى بكل ذلک من قريب أو بعيد، و ينتظر بلهفة اللحظة التی يتاح له فيها ان يمدّ يده إلى كل مظلوم و كل محروم، و كل بائس و يقطع دابر الظالمين.

و قد قدّر لهذا القائد المنتظر أن لا يعلن عن نفسه، و لا يكشف للآخرين حياته على الرغم من انه يعيش معهم انتظارا للحظة الموعودة.

و من الواضح ان الفكرة بهذه المعالم الإسلامية، تقرّب الهوة الغيبية بين المظلومين كل المظلومين، و المنقذ المنتظر و تجعل الجسر بينهم و بينه فی شعورهم النفسی

ص:۱۹

قصيرا مهما طال الانتظار.

و نحن حينما يراد منا أن نؤمن بفكرة المهدى بوصفها تعبيرا، عن انسان حی محدد يعيش فعلا كما نعيش و يترقب كما نترقب، يراد الايحاء إلينا بأن فكرة الرفض المطلق لكل ظلم و جور التی يمثلها المهدى، تجسّدت فعلا فی القائد الرافض المنتظر، الذی سيظهر و ليس فی عنقه بيعة لظالم كما فی الحديث، و ان الايمان به ايمان بهذا الرفض الحی القائم فعلا و مواكبة له.

و قد ورد فی الاحاديث الحث المتواصل على انتظار الفرج، و مطالبة المؤمنين بالمهدى ان يكونوا بانتظاره.

و فی ذلک تحقیق لتلک الرابطة الروحیة، و الصلة الوجدانیة بینهم و بین القائد الرافض، و کل ما یرمز إلیه من قیم، و هی رابطة و صلة لیس بالامکان ایجادها ما لم یکن المهدی قد تجسّد فعلا فی انسان حی معاصر.

و هکذا نلاحظ ان هذا التجسید اعطی الفکرة زخما

ص:۲۰

جدیدا، و جعل منها مصدر عطاء و قوة بدرجة أکبر، اضافة إلی ما یجده أی انسان رافض من سلوة و عزاء و تخفیف لما یقاسیه من آلام الظلم و الحرمان، حین یحس ان إمامه و قائده یشارکه هذه الآلام و یتحسّس بها فعلا بحکم کونه انسانا معاصرا، یعیش معه و لیس مجرد فکرة مستقبلیة.

و لکن التجسید المذکور أدی فی نفس الوقت إلی مواقف سلبیة تجاه فکرة المهدی نفسها، لدی عدد من الناس الذین صعب علیهم ان یتصوروا ذلک و یفترضوه.

فهم یتساءلون! إذا کان المهدی یعبر عن انسان حی، عاصر کل هذه الأجیال المتعاقبة منذ أکثر من عشرة قرون، و سیظل یعاصر امتداداتها إلی ان یظهر علی الساحة، فکیف تأتی لهذا الانسان أن یعیش هذا العمر الطویل، و ینجو من قوانین الطبیعة التی تفرض علی کل انسان أن یمر بمرحلة الشیخوخة و الهرم، فی وقت

ص:۲۱

سابق علی ذلک جدا و تؤدی به تلک المرحلة طبیعیا الی الموت، أو لیس ذلک مستحیلا من الناحیة الواقعیة؟

و یتساءلون أیضا! لما ذا کل هذا الحرص من اللّه- سبحانه و تعالی- علی هذا الانسان بالذات، فتعطل من اجله القوانین الطبیعیة، و یفعل المستحیل لإطالة عمره و الاحتفاظ به لیوم الموعود، فهل عقمت البشریة عن انتاج القادة الأکفاء؟ و لما ذا لا یترک الیوم الموعود لقائد یولد مع فجر ذلک الیوم، و ینمو کما ینمو الناس، و یمارس دوره بالتدریج حتی یملأ الأرض قسطا و عدلا بعد ان ملئت ظلما و جورا؟

و یتساءلون أیضا! إذا کان المهدی اسما لشخص محدّد هو ابن الامام الحادی عشر من أئمة أهل البیت (ع) الذی ولد سنة (۲۵۶) ه و توفی أبوه سنة (۲۶۰) ه، فهذا یعنی انه کان طفلا صغیرا عند موت ابیه، لا یتجاوز خمس سنوات، و هی سن لا تکفی للمرور بمرحلة اعداد

ص:۲۲

فکری و دینی کامل علی ید أبیه، فکیف و بأی طریقة یکتمل اعداد هذا الشخص لممارسة دوره الکبیر، دینیا و فکریا و علمیا؟

و يتساءلون أيضا؟ إذا كان القائد جاهزا فلما ذا كل هذا الانتظار الطويل مئات السنين؟ أو ليس فى ما شهده العالم من المحن و الكوارث الاجتماعية ما يبرّر بروزه على الساحة و اقامة العدل على الأرض؟

و يتساءلون أيضا! كيف نستطيع أن نؤمن بوجود المهدى، حتى لو افترضنا ان هذا ممكن؟ و هل يسوغ لانسان ان يعتقد بصحة فرضية من هذا القبيل دون ان يقوم عليها دليل علمى أو شرعى قاطع؟ و هل تكفى بضع روايات تنقل عن النبى (ص) لا نعلم مدى صحتها للتسليم بالفرضية المذكورة؟

و يتساءلون أيضا بالنسبة إلى ما اعدّ له هذا الفرد من دور فى اليوم الموعود! .. كيف يمكن أن يكون للفرد

ص:٢٣

هذا الدور العظيم الحاسم فى حياة العالم، مع ان الفرد مهما كان عظيما لا يمكنه أن يصنع بنفسه التاريخ، و يدخل به مرحلة جديدة، و انما تختمر بذوو الحركة التاريخية و جذوتها فى الظروف الموضوعية و تناقضاتها، و عظمة الفرد هى التى ترشحه لكى يشكل الواجهة لتلك الظروف الموضوعية، و التغيير العملى عما تتطلبه من حلول؟

و يتساءلون أيضا! ما هى الطريقة التى يمكن أن نتصور من خلالها ما سيتمّ على يد ذلك الفرد من تحول هائل و انتصار حاسم للعدل و رسالة العدل على كل كيانات الظلم و الجور و الطغيان، على الرغم مما تملك من سلطان و نفوذ، و ما يتواجد لديها من وسائل الدمار و التدمير و ما وصلت إليه من المستوى الهائل فى الامكانات العلمية و القدرة السياسية و الاجتماعية و العسكرية! هذه اسئلة قد تتردد فى هذا المجال و تقال بشكل و آخر، و ليست البواعث الحقيقية لهذه الاسئلة فكرية

ص:٢٤

فحسب، بل هناك مصدر نفسى لها أيضا، و هو الشعور بهيبة الواقع المسيطر عللليا و ضالة أى فرصة لتغييره من الجذور، و بقدر ما يبعثه الواقع الذى يسود العالم على مرّ الزمن من هذا الشعور تتعمق الشكوك و تترادف التساؤلات. و هكذا تؤدى الهزيمة و الضالة و الشعور بالضعف لدى الانسان، إلى ان يحسّ نفسيا بإرهاق شديد لمجرد تصور عملية التغيير الكبرى للعالم التى تفرغه من كل تناقضاته و مظالمه التاريخية، و تعطيه محتوى جديدا قائما على أساس الحق و العدل، و هذا الارهاق يدعوه إلى التشكك فى هذه الصورة و محاولة رفضها لسبب و آخر و نحن الآن نأخذ التساؤلات السابقة تباعا، لنقف عند كل واحد منها وقفة قصيرة بالقدر الذى تتسع له هذه الوريقات.

ص:٢٥

١- كيف تأتّى للمهدى

ص:٢٦

و بكلمة أخرى هل بالامكان ان يعيش الانسان قرونا كثيرة كما هو المفترض فى هذا القائد المنتظر لتغيير العالم، الذى يبلغ عمره الشريف فعلا أكثر من ألف و مائة و أربعين سنة، أى حوالى (١۴) مرة من عمر الانسان الاعتيادى الذى يمر بكل المراحل الاعتيادية من الطفولة إلى الشيخوخة؟

و كلمة الامكان هنا تعنى أحد ثلاثة معان، الامكان العملى، و الامكان العلمى، و الامكان المنطقى أو الفلسفى، و اقصد بالامكان العملى، أن يكون الشىء ممكنا على نحو يتاح لى أو لک، أو لإنسان آخر فعلا ان يحققه، فالسفر عبر المحيط، و الوصول إلى قاع البحر، و الصعود الى القمر، أشياء أصبح لها امكان عملى فعلا. فهناک من يمارس هذه الأشياء فعلا بشكل و آخر.

ص:٢٧

و أقصد بالامكان العلمى، ان هناک اشياء قد لا يكون بالامكان عمليا لى أو لک، أن نمارسها فعلا بوسائل المدنية المعاصرة، و لكن لا يوجد لدى العلم و لا تشير اتجاهاته المتحركة الى ما يبرر رفض امكان هذه الأشياء و وقوعها وفقا لظروف و وسائل خاصة، فصعود الانسان الى كوكب الزهرة لا يوجد فى العلم ما يرفض وقوعه، بل ان اتجاهاته القائمة فعلا تشير إلى امكان ذلک و ان لم يكن الصعود فعلا ميسورا لى أو لک، لأن الفارق بين الصعود إلى الزهرة و الصعود إلى القمر ليس الا فارق درجة، و لا يمثل الصعود إلى الزهرة إلا مرحلة تذليل الصعاب الاضافية التى تنشأ من كون المسافة أبعد، فالصعود إلى الزهرة ممكن علميا و ان لم يكن ممكنا عمليا فعلا. و على العكس من ذلک الصعود إلى قرص الشمس فى كبد السماء فإنه غير ممكن علميا، بمعنى ان العلم لا أمل له فى وقوع ذلک إذ لا يتصور علميا و تجريبيا. امكانية صنع ذلک الدرع الواقى من الاحتراق بحرارة الشمس،

ص:٢٨

التى تمثل آتونا هائلا مستعرا بأعلى درجة تخطر على بال انسان.

و أقصد بالامكان المنطقى أو الفلسفى ان لا يوجد لدى العقل وفق ما يدركه من قوانين قبلية- أى سابقة على التجربة- ما يبرر رفض الشىء و الحكم باستحالته.

فوجود ثلاث برتقالات تنقسم بالتساوى و بدون كسر الى نصفين ليس له امكان منطقى، لأن العقل يدرک- قبل أن يمارس أى تجربة- ان الثلاثة عدد فردى و ليس زوجا، فلا يمكن ان تنقسم بالتساوى لأن انقسامها بالتساوى يعنى كونها زوجا فتكون فردا و زوجا فى وقت واحد و هذا تناقض، و التناقض مستحيل منطقيا. و لكن دخول الانسان فى النار دون ان يحترق و صعوده للشمس دون ان تحرقه الشمس بحرارتها ليس مستحيلا من الناحية المنطقية إذ لا تناقض فى افتراض ان الحرارة لا تتسرب من الجسم الأكثر حرارة الى الجسم

ص:٢٩

الأقل حرارة، و انما هو مخالف للتجربة التى اثبتت تسرب الحرارة من الجسم الأكثر حرارة الى الجسم الاقل حرارة الى ان يتساوى الجسمان فى الحرارة.

و هكذا نعرف ان الامكان المنطقى أوسع دائرة من الامكان العلمى، و هذا أوسع دائرة من الامكان العملى.

و لا شكّ فى ان امتداد عمر الإنسان آلاف السنن ممكن منطقيا، لأن ذلک ليس مستحيلا من وجهة نظر عقلية تجريدية، و لا يوجد فى افتراض من هذا القبيل أى تناقض، لأن الحياة كمفهوم لا تستبطن الموت السريع و لا نقاش فى ذلک.

كما لا شکّ أيضا و لا نقاش فى ان هذا العمر الطويل ليس ممكنا امكانا عمليا على نحو الامكانات العملية للنزول إلى قاع البحر أو الصعود الى القمر، ذلک لأن العلم بوسائله و أدواته الحاضرة فعلا، و المتاحة من خلال التجربة البشرية المعاصرة، لا تستطيع أن تمدد عمر

ص:٣٠

الانسان مئات السنين، و لهذا تجد أن أكثر الناس حرصا على الحياة و قدرة على تسخير امكانات العلم، لا يتاح لها من العمر إلا بقدر ما هو مألوف.

و أما الامكان العلمى فلا يوجد علميا اليوم ما يبرر رفض ذلک من الناحية النظرية. و هذا بحث يتصل فى الحقيقة بنوعية التفسير الفلسجى لظاهرة الشيخوخة و الهرم لدى الانسان، فهل تعبّر هذه الظاهرة عن قانون طبيعى يفرض على انسجة جسم الانسان و خلاياه بعد ان تبلغ قمة نموها أن تتصلب بالتدريج و تصبح أقل كفاءة للاستمرار فى العمل، إلى ان تتعطل فى لحظة معينة، حتى لو عزلناها عن تأثير أى عامل خارجى، أو ان هذا التصلب و هذا التناقص فى كفاءة الانسجة و الخلايا الجسمية، للقيام بادوارها الفسيولوجية نتيجة صراع مع عوامل خارجية كالميكروبات أو التسمم الذى يتسرب إلى الجسم من خلال ما يتناوله من غذاء مكثف، أو ما يقوم به من عمل مكثف أو أى عامل آخر؟

ص:٣١

و هذا سؤال يطرحه العلم اليوم على نفسه: و هو جاد فى الاجابة عليه، و لا يزال للسؤال أكثر من جواب على الصعيد العلمى. فإذا أخذنا بوجهة النظر العلمية التى تتجه إلى تفسير الشيخوخة و الضعف الهرمى، بوصفه نتيجة صراع و احتكاک مع مؤثرات خارجية معينة فهذا يعنى أن بالامكان نظريا، إذا عزلت الانسجة التى يتكون منها جسم الانسان عن تلک المؤثرات المعينة أن تمتد بها الحياة و تتجاوز ظاهرة الشيخوخة و تتغلب عليها نهائيا.

و إذا أخذنا بوجهة النظر الأخرى التى تميل إلى افتراض الشيخوخة قانونا طبيعيا للخلايا و الانسجة الحية نفسها بمعنى انها تحمل فى احشائها بذرة فنائها المحتوم، مرورا بمرحلة الهرم و الشيخوخة و انتهاء بالموت.

أقول: إذا اخذنا بوجهة النظر هذه فليس معنى هذا عدم افتراض أى مرونة فى هذا القانون الطبيعى، بل

ص:٣٢

هو على افتراض وجوده قانون مرن، لأننا نجد فى حياتنا الاعتيادية و لأن العلماء يشاهدون فى مختبراتهم العلمية ان الشيخوخة كظاهرة فسيولوجية، لا زمنية قد تأتى مبكرة و قد تتأخر و لا تظهر إلا فى فترة متأخرة، حتى ان الرجل قد يكون طاعنا فى السن و لكنه يملک اعضاء لينة و لا تبدو عليه اعراض الشيخوخة كما نص على ذلک الاطباء. بل ان العلماء استطاعوا عمليا أن يستفيدوا من مرونة ذلک القانون الطبيعى المفترض، فاطالوا عمر بعض الحيوانات مئات المرات بالنسبة إلى أعمارها الطبيعية، و ذلک بخلق ظروف و عوامل تؤجل فاعلية قانون الشيخوخة.

و بهذا يثبت علميا أن تأجيل هذا القانون بخلق ظروف و عوامل معينة أمر ممكن علميا، و لئن لم يتح للعلم أن يمارس فعلا هذا التأجيل بالنسبة إلى كائن معقد معين كالانسان فليس ذلک إلا لفارق درجه بين صعوبة هذه الممارسة بالنسبة إلى الانسان و صعوبتها بالنسبة إلى

احياء أخرى. و هذا يعنى ان العلم من الناحية النظرية و بقدر ما تشير إليه اتجاهاته المتحركة لا يوجد فيه أبدا ما يرفض امكانية اطالة عمر الانسان، سواء فسرنا الشيخوخة بوصفها نتاج صراع و احتكاک مع مؤثرات خارجية أو نتاج قانون طبيعى للخلية الحية نفسها يسير بها نحو الفناء.

و يتلخص من ذلک: أن طول عمر الانسان و بقاءه قرونا متعددة أمر ممكن منطقيا و ممكن علميا و لكنه لا يزال غير ممكن عمليا، إلا ان اتجاه العلم سائر فى طريق تحقيق هذا الامكان غير طريق طويل.

و على هذا الضوء يتناول عمر المهدى «عليه الصلاة و السلام» و ما احيط به من استفهام أو استغراب.

و نلاحظ: انه بعد ان ثبت امكان هذا العمر الطويل منطقيا و علميا، و ثبت ان العلم سائر فى طريق تحويل الامكان النظرى الى امكان عملى تدريجا، لا يبقى

للاستغراب محتوىّ الا استبعاد ان يسبق المهدى العلم نفسه، فيتحول الامكان النظرى الى امكان عملى فى شخصه قبل أن يصل العلم فى تطوره إلى مستوى القدرة الفعلية على هذا التحويل، فهو نظير من يسبق العلم فى اكتشاف دواء ذات السحايا أو دواء السرطان.

و إذا كانت المسألة هى انه كيف سبق الاسلام- الذى صمم عمر هذا القائد المنتظر- حركة العلم فى مجال هذا التحويل؟

فالجواب: انه ليس ذلک هو المجال الوحيد الذى سبق فيه الاسلام حركة العلم. أو ليست الشريعة الاسلامية ككل، قد سبقت حركة العلم و التطور الطبيعى للفكر الانسانى قرونا عديدة؟ أو لم تناد بشعارات طرحت خططا للتطبيق لم ينضج الانسان للتوصل إليها

فی حرکته المستقلة إلا بعد مئات السنین؟ أو لم تأت بتشریعات فی غایة الحکمة لم یستطع الانسان أن یدرک اسرارها و وجه الحکمة فیها إلا قبل برهة وجیزة من الزمن؟ أو لم تکشف رسالة السماء اسرارا من الکون

ص:۳۵

لم تکن تخطر علی بال انسان، ثم جاء العلم لیثبتها و یدعمها؟! فاذا کنا نؤمن بهذا کله فلما ذا نستکثر علی مرسل هذه الرسالة- سبحانه و تعالی- ان یسبق العلم فی تصمیم عمر المهدی؟ و انا هنا لم اتکلم الا عن مظاهر السبق التی نستطیع ان نحسها نحن بصورة مباشرة، و یمکن أن نضیف إلی ذلک مظاهر السبق التی تحدثنا بها رسالة السماء نفسها. و مثال ذلک انها تخبرنا بأن النبی (ص) قد أسری به لیلا من المسجد الحرام إلی المسجد الأقصی و هذا الاسراء، إذا أردنا أن نفهمه فی اطار القوانین الطبیعیة فهو یعبر عن الاستفادة من القوانین الطبیعیة بشکل لم یتح للعلم أن یحققه إلا بعد مئات السنین، فنفس الخبرة الربانیة التی اتاحت للرسول (ص) التحرک السریع قبل أن یتاح للعلم تحقیق ذلک، اتاحت لآخر خلفائه المنصوصین العمر المدید قبل أن یتاح للعلم تحقیق ذلک.

نعم، هذا العمر المدید الذی منحه اللّه تعالی للمنقذ

ص:۳۶

المنتظر یبدو غریبا فی حدود المألوف حتی الیوم فی حیاة الناس و فی ما انجز فعلا من تجارب العلماء. و لکن أو لیس الدور التغییری الحاسم الذی أعد له هذا المنقذ غریبا فی حدود المألوف فی حیاة الناس. و ما مرت بهم من تطورات التاریخ؟ أو لیس قد أنیط به تغییر العالم، و اعادة بنائه الحضاری من جدید علی أساس الحق و العدل؟ فلما ذا نستغرب إذا اتسم التحضیر لهذا الدور الکبیر ببعض الظواهر الغریبة و الخارجة عن المألوف کطول عمر المنقذ المنتظر؟ فان غرابة هذه الظواهر و خروجها عن المألوف مهما کان شدیدا، لا یفوق بحال غرابة نفس الدور العظیم الذی یجب علی الیوم الموعود انجازه. فاذا کنا نستسیغ ذلک الدور الفرید تاریخیا علی الرغم من انه لا یوجه دور مناظر له فی تاریخ الإنسان، فلما ذا لا نستسیغ ذلک العمر المدید الذی لا نجد عمرا مناظرا له فی حیاتنا المألوفة؟

و لا أدری هل هی صدفة أن یقوم شخصان فقط،

ص:۳۷

بتفریغ الحضارة الإنسانیة من محتواها الفاسد و بنائها من جدید، فیکون لکل منهما عمر مدید یزید علی اعمارنا الاعتیادیة اضعافا مضاعفة؟ احدهما مارس دوره فی ماضی البشریة و هو نوح الذی نص القرآن الکریم علی انه مکث فی قومه ألف عام إلا خمسین سنة، و قدر له من خلال الطوفان أن یبنی العالم من جدید. و الآخر یمارس دوره فی مستقبل البشریة و هو المهدی الذی مکث فی قومه حتی الآن أکثر من ألف عام و سیقدر له فی الیوم الموعود أن یبنی العالم من جدید.

فلما ذا نقبل نوح الذی ناهز ألف عام علی أقل تقدیر و لا تقبل المهدی؟

ص:۳۸

المعجزة و العمر الطويل

ص:۳۹

و قد عرفنا حتى الآن ان العمر الطويل ممكن علميا، و لكن لنفترض انه غير ممكن علميا، و ان قانون الشيخوخة و الهرم قانون صارم، لا يمكن للبشرية اليوم و لا على خطها الطويل أن تتغلب عليه، و تغير من ظروفه و شروطه فما ذا يعنى ذلک؟ انه يعنى ان اطالة عمر الانسان- كنوح أو كالمهدى- قرونا متعددة، هى على خلاف القوانين الطبيعية التى اثبتها العلم بوسائل التجربة و الاستقراء الحديثة، و بذلک تصبح هذه الحالة معجزة عطلت قانونا طبيعيا فى حالة معينة للحفاظ على حياة الشخص الذى انيط به الحفاظ على رسالة السماء، و ليست هذه المعجزة فريدة من نوعها، أو غريبة على عقيدة المسلم المستمدة من نص القرآن و السنة، فليس قانون الشيخوخة و الهرم أشد صرامة من قانون انتقال الحرارة من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة حتى يتساويان، و قد عطل هذا القانون لحماية حياة ابراهيم «عليه السلام» حين كان الاسلوب الوحيد للحفاظ عليه

ص:۴۰

تعطيل ذلک القانون فقيل للنار حين ألقى فيها ابراهيم قُلْنا يا نارُ كُونِى بَرْداً وَ سَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ[1] فخرج منها كما دخل سليما لم يصبه أذى، إلى كثير من القوانين الطبيعية التى عطلت لحماية اشخاص من الأنبياء و حجج اللّه على الأرض ففلق البحر لموسى. و شبّه للرومان انهم قبضوا على عيسى و لم يكونوا قد قبضوا عليه، و خرج النبى محمد (ص) من داره و هى محفوفة بحشود قريش التى ظلت ساعات تتربص به لتهجم عليه، فستره اللّه تعالى عن عيونهم و هو يمشى بينهم. كل هذه الحالات تمثل قوانين طبيعية عطلت لحماية شخص، كانت الحكمة الربانية تقتضى الحفاظ على حياته، فليكن قانون الشيخوخة و الهرم من تلک القوانين.

و قد يمكن أن نخرج من ذلک بمفهوم عام و هو انه كلما توقف الحفاظ على حياة حجة للّه فى الأرض على تعطيل قانون طبيعى و كانت ادامة حياة ذلک الشخص ضرورية

ص:۴۱

لإنجاز مهمته التى أعدّ لها، تدخلت العناية الربانية فى تعطيل ذلک القانون لانجاز ذلک، و على العكس إذا كان الشخص قد انتهت مهمته التى أعدّ لها ربانيا فانه سيلقى حتفه و يموت أو يستشهد وفقا لما تقرره القوانين الطبيعية.

و نواجه عادة بمناسبة هذا المفهوم العام السؤال التالى:

---

[1] (۱) الأنبياء: ۶۹.

كيف يمكن أن يتعطل القانون، و كيف تنفصم العلاقة الضرورية التى تقوم بين الظواهر الطبيعية؟ و هل هذه إلّا مناقضة للعلم الذى اكتشف ذلک القانون الطبيعى، و حدد هذه العلاقة الضرورية على أسس تجريبية و استقرائية؟

و الجواب: ان العلم نفسه قد أجاب على هذا السؤال بالتنازل عن فكرة الضرورة فى القانون الطبيعى و توضيح ذلک: ان القوانين الطبيعية يكتشفها العلم على أساس التجربة و الملاحظة المنتظمة، فحين يطرد وقوع ظاهرة طبيعية عقيب ظاهرة اخرى يستدل بهذا الاطراد على

قانون طبيعى، و هو انه كلما وجدت الظاهرة الأولى وجدت الظاهرة الثانية عقيبها، غير ان العلم لا يفترض فى هذا القانون الطبيعى علاقة ضرورية بين الظاهرتين تابعة من صميم هذه الظاهرة و ذاتها، و صميم تلک و ذاتها لأن الضرورة حالة غيبية، لا يمكن للتجربة و وسائل البحث الاستقرائى و العلمى اثباتها، و لهذا فان منطق العلم الحديث، يؤكد ان القانون الطبيعى- كما يعرّفه العلم- لا يتحدث عن علاقة ضرورية بل عن اقتران مستمر بين ظاهرتين، فإذا جاءت المعجزة و فصلت احدى الظاهرتين عن الاخرى فى قانون طبيعى لم يكن ذلک فصما لعلاقة ضرورية بين الظاهرتين.

و الحقيقة ان المعجزة بمفهومها الدينى، قد اصبحت فى ضوء المنطق العلمى الحديث مفهومة بدرجة أكبر مما كانت عليه فى ظل وجهة النظر الكلاسيكية الى علاقات السببية فقد كانت وجهة النظر القديمة، تفترض ان كل ظاهرتين اطرد اقتران احداهما بالأخرى، فالعلاقة بينهما

علاقة ضرورة، و الضرورة تعنى ان من المستحيل أن تنفصل احدى الظاهرتين عن الأخرى، و لكن هذه العلاقة تحولت فى منطق العلم الحديث الى قانون الاقتران أو التتابع المطرد بين الظاهرتين دون افتراض تلک الضرورة الغيبية.

و بهذا تصبح المعجزة حالة استثنائية لهذا الاطراد فى الاقتران أو التتابع دون أن تصطدم بضرورة أو تؤدى إلى استحالة.

و أما على ضوء الأسس المنطقية للاستقراء فنحن نتفق مع وجهة النظر العلمية الحديثة فى ان الاستقراء، لا يبرهن على علاقة الضرورة بين الظاهرتين و لكنا نرى انه يدل على وجود تفسير مشترک لا طراد التقارن أو التعاقب بين الظاهرتين باستمرار، و هذا التفسير المشترک كما يمكن صياغته على أساس افتراض الضرورة الذاتية، كذلک يمكن صياغته على أساس افتراض حكمة دعت منظم

الكون إلى ربط ظواهر معينة بظواهر اخرى باستمرار و هذه الحكمة نفسها تدعو أحيانا إلى الاستثناء فتحدث المعجزة.

ص:۴۵

۲- لما ذا كل هذا الحرص على اطالة عمره؟

ص:۴۶

و نتناول الآن السؤال الثانی و هو یقول: لما ذا کل هذا الحرص من الله سبحانه و تعالی علی هذا الانسان بالذات، فتعطل من أجله القوانین الطبیعیة لإطالة عمره؟ و لما ذا لا تترک قیادة الیوم الموعود لشخص یتمخض عنه المستقبل، و تنضجه ارهاصات الیوم الموعود فیبرز علی الساحة و یمارس دوره المنتظر.

و بکلمة اخری: ما هی فائدة هذه الغیبة الطویلة و ما المبرّر لها؟

و کثیر من الناس یسألون هذا السؤال و هم لا یریدون أن یسمعوا جوابا غیبیا، فنحن نؤمن بأن الأئمة الاثنی عشر مجموعة فریدة لا یمکن التعویض عن أی واحد منهم، غیر ان هؤلاء المتسائلین یطالبون بتفسیر اجتماعی للموقف، علی ضوء الحقائق المحسوسة لعملیة التغییر الکبری نفسها و المتطلبات المفهومة للیوم الموعود.

ص:۴۷

و علی هذا الأساس نقطع النظر مؤقتا عن الخصائص التی نؤمن بتوفرها، فی هؤلاء الأئمة المعصومین و نطرح السؤال التالی:

اننا بالنسبة إلی عملیة التغییر المرتقبة فی الیوم الموعود، بقدر ما تکون مفهومة علی ضوء سنن الحیاة و تجاربها، هل یمکن أن نعتبر هذا العمر الطویل لقائدها المدّخر، عاملا من عوامل انجاحها و تمکنه من ممارستها و قیادتها بدرجة أکبر؟

و نجیب علی ذلک بالایجاب، و ذلک لعدة أسباب منها ما یلی:

ان عملیة التغییر الکبری تتطلب وضعا نفسیا فریدا فی القائد الممارس لها مشحونا، بالشعور، بالتفوق و الاحساس، بضالة الکیانات الشامخة، التی أعدّ للقضاء علیها و لتحویلها حضاریا إلی عالم جدید، فبقدر ما یعمر قلب القائد المغیر من شعور بتفاهة الحضارة التی یصارعها

ص:۴۸

و احساس واضح بأنها مجرد نقطة علی الخط الطویل لحضارة الانسان، یصبح أکثر قدرة من الناحیة النفسیة علی مواجهتها و الصمود فی وجهها و مواصلة العمل ضدها حتی النصر.

و من الواضح ان الحجم المطلوب من هذا الشعور النفسی یتناسب مع حجم التغییر نفسه، و ما یراد القضاء علیه من حضارة و کیان، فکلما کانت المواجهة لکیان أکبر و لحضارة أرسخ و أشمخ تطلبت زخما أکبر من هذا الشعور النفسی المفعم.

و لما كانت رسالة اليوم الموعود تغيير عالم ملئ بالظلم بالجور، تغييرا شاملا بكل قيمه الحضارية و كياناته المتنوعة فمن الطبيعى أن تفتش هذه الرسالة عن شخص أكبر فى شعوره النفسى من ذلک العالم كله، عن شخص ليس من مواليد ذلک العالم الذين نشئوا فى ظل تلک الحضارة التى يراد تقويضها و استبدالها بحضارة العدل

ص:۴۹

و الحق، لأن من ينشأ فى ظل حضارة راسخة، تعمر الدنيا بسلطانها و قيمها و افكارها، يعيش فى نفسه الشعور بالهيبة تجاهها لأنه ولد و هى قائمة، و نشأ صغيرا و هى جبارة، و فتح عينيه على الدنيا فلم يجد سوى أوجهها المختلفة، و خلافا لذلک شخص يتوغل فى التاريخ عاش الدنيا قبل أن تر تلک الحضارة النور، و رأى الحضارات الكبيرة سادت العالم الواحدة تلو الأخرى ثم تداعت و انهارت، رأى ذلک بعينيه و لم يقرأه فى كتاب تاريخ ثم رأى الحضارة التى يقدّر لها أن تكوّن الفصل الأخير من قصة الانسان قبل اليوم الموعود، رآها و هى بذور صغيرة لا تكاد تتبين، ثم شاهدها و قد اتخذت مواقعها فى احشاء المجتمع البشرى تتربص الفرصة لكى تنمو و تظهر، ثم عاصرها و قد بدأت تنمو و تزحف و تصاب بالنكسة تارة و يحالفها التوفيق تارة اخرى، ثم واكبها و هى تزدهر و تتعملق و تسيطر بالتدريج على مقدّرات عالم بكامله، فان شخصا من هذا القبيل عاش كل هذه

ص:۵۰

المراحل بفطنة و انتباه كاملين ينظر الى هذا العملاق- الذى يريد أن يصارعه- من زاوية ذلک الامتداد التاريخى الطويل الذى عاشه بحسه لا فى بطون كتب التاريخ فحسب، ينظر إليه لا بوصفه قدرا محتوما، و لا كما كان ينظر «جان جاک روسو» الى الملكية فى فرنسا، فقد جاء عنه انه كان يرعبه مجرد ان يتصور فرنسا بدون ملک، على الرغم من كونه من الدعاة الكبار فكريا و فلسفيا إلى تطوير الوضع السياسى القائم وقتئذ، لأن «روسو» هذا نشا فى ظل الملكية و تنفس هواءها طيلة حياته، و أما هذا الشخص المتوغل فى التاريخ، فله هيبة التاريخ و قوة التاريخ و الشعور المفعم بأن ما حوله من كيان و حضارة، وليد يوم من أيام التاريخ تهيأت له الأسباب فوجد و ستتهيأ الأسباب فيزول، فلا يبقى منه شىء كما لم يكن يوجد منه شىء بالأمس القريب أو البعيد، و ان الأعمار التاريخية للحضارات و الكيانات مهما طالت فهى ليست إلا أياما

ص:۵۱

قصيرة فى عمر التاريخ الطويل.

هل قرأت سورة الكهف؟ و هل قرأت عن أولئک الفتية الذين آمنوا بربهم و زادهم اللّه هدى، و واجهوا كيانا و ثنيا حاكما، لا يرحم و لا يتردد فى خنق أى بذرة من بذور التوحيد و الارتفاع عن وحدة الشرک، فضاقت نفوسهم و دب إليها اليأس و سدّت منافذ الأمل أمام أعينهم، و لجئوا إلى الكهف يطلبون من اللّه حلا لمشكلتهم بعد ان اعيتهم الحلول و كبر فى نفوسهم ان يظل الباطل يحكم، و يظلم و يقهر الحق و يصغى كل من يخفق قلبه للحق، هل تعلم ما ذا صنع اللّه تعالى بهم؟ انه أنامهم ثلاثمائة سنة و تسع سنين فى ذلک الكهف، ثم بعثهم من نومهم و دفع بهم إلى مسرح الحياة، بعد ان كان ذلک الكيان الذى بهرهم بقوته و

ظلمه، قد تداعى و سقط و أصبح تاريخا لا يرعب أحدا و لا يحرک ساکنا، کل ذلک لکی يشهد هؤلاء الفتية مصرع ذلک الباطل الذی کبر عليهم امتداده و قوته و استمراره، و يروا انتهاء أمره

ص:۵۲

بأعينهم و يتصاغر الباطل فی نفوسهم، و لئن تحققت لأصحاب الکهف هذه الرؤية الواضحة بکل ما تحمل من زخم و شموخ نفسيين من خلال ذلک الحدث الفريد الذی مدد حياتهم ثلاثمائة سنة، فان الشیء نفسه يتحقق للقائد المنتظر من خلال عمره المديد الذی يتيح له أن يشهد العملاق و هو قزم و الشجرة الباسقة و هی بذرة، و الاعصار و هو مجرد نسمة.

أضف إلی ذلک: أن التجربة التی تتيحها مواکبة تلک الحضارات المتعاقبة و المواجهة المباشرة لحرکتها و تطوراتها لها أثر کبير فی الاعداد الفکری و تعميق الخبرة القيادية لليوم الموعود، لأنها تضع الشخص المدّخر أمام ممارسات کثيرة للآخرين بکل ما فيها من نقاط الضعف و القوة و من ألوان الخطا و الصواب و تعطی لهذا الشخص قدرة أکبر علی تقييم الظواهر الاجتماعية بالوعی الکامل علی اسبابها، و کل ملابساتها التاريخية.

ثم ان عملية التغيير المدّخرة للقائد المنتظر تقوم علی

ص:۵۳

أساس رسالة معينة هی رسالة الإسلام، و من الطبيعی أن تتطلب العملية فی هذه الحالة قائدا قريبا من مصادر الإسلام الأولی، قد بنيت شخصيته بناء کاملا بصورة مستقلة و منفصلة عن مؤثرات الحضارة التی يقدر لليوم الموعود أن يحاربها و خلافا لذلک الشخص الذی يولد و ينشأ فی کنف هذه الحضارة و تتفتح افکاره و مشاعره فی اطارها، فانه لا يتخلص غالبا من رواسب تلک الحضارة و مرتکزاتها، و ان قاد حملة تغييرية ضدها، فلکی يضمن عدم تأثر القائد المدّخر بالحضارة التی اعد لاستبدالها لا بد أن تکون شخصيته قد بنيت بناء کاملا فی مرحلة حضارية سابقة هی أقرب ما تکون فی الروح العامة، و من ناحية المبدأ الی الحالة الحضارية التی يتجه اليوم الموعود إلی تحقيقها بقيادته.

ص:۵۴

۳- کيف اکتمل اعداد القائد المنتظر؟

ص:۵۵

و نأتی الآن علی السؤال الثالث القائل: کيف اکتمل إعداد القائد المنتظر مع انه لم يعاصر اباه الامام العسکری الا خمس سنوات تقريبا و هی فترة الطفولة التی لا تکفی لانضاج شخصية القائد فما هی الظروف التی تکامل من خلالها؟

و الجواب: ان المهدى «عليه السلام» خلّف أباه فى امامة المسلمين، و هذا يعنى انه كان اماما بكل ما فى الامامة من محتوى فكرى و روحى فى وقت مبكر جدا من حياته الشريفة.

و الامامة المبكرة ظاهرة مسبقة إليها عدد من آبائه عليهم السلام، فالامام محمد بن على الجواد (ع) تولى الامامة و هو فى الثامنة من عمره و الامام على بن محمد

ص:۵۶

الهادى تولى الامامة و هو فى التاسعة من عمره و الامام أبو محمد الحس العسكرى والد القائد المنتظر تولى الامامة و هو فى الثانية و العشرين من عمره، و يلاحظ ان ظاهرة الامامة المبكرة بلغت ذرونها فى الامام المهدى (ع) و الامام الجواد (ع) و نحن نسميها ظاهرة لأنها كانت بالنسبة إلى عدد من آباء المهدى «عليه السلام» تشكل مدلولا حسيا عمليا، عاشه المسلمون و وعوه فى تجربتهم مع الامام بشكل و آخر، و لا يمكن أن نطالب باثبات لظاهرة من الظواهر أوضح و أقوى من تجربة امة. و نوضح ذلک ضمن النقاط التالية:

۱- لم تكن امامة الامام من أهل البيت مركزا من مراكز السلطان و النفوذ التى تنتقل بالوراثة من الأب إلى الابن و يدعمها النظام الحاكم كإمامة الخلفاء الفاطميين، و خلافة الخلفاء العباسيين، و انما كانت تكتسب ولاء قواعدها الشعبية الواسعة عن طريق التغلغل الروحى و الاقناع الفكرى لتلک القواعد

ص:۵۷

بجدارة هذه الامامة لزعامة الإسلام، و قيادته على أسس روحية و فكرية.

ب- ان هذه القواعد الشعبية بنيت منذ صدر الإسلام، و ازدهرت و اتسعت على عهد الامامين الباقر و الصادق «عليهما السلام» و اصبحت المدرسة التى رعاها هذان الامامان، فى داخل هذه القواعد تشكل تيارا فكريا واسعا، فى العالم الإسلامى يضم المئات من الفقهاء و المتكلمين و المفسرين و العلماء فى مختلف ضروب المعرفة الاسلامية و البشرية المعروفة وقتئذ، حتى قال الحسن بن على الوشاء: انى دخلت مسجد الكوفة فرأيت فيه تسعمائة شيخ كلهم يقولون حدثنا جعفر بن محمد.

ج- ان الشروط التى كانت هذه المدرسة و ما تمثله من قواعد شعبية فى المجتمع الإسلامى، تؤمن بها و تتقيد بموجبها فى تعيين الامام و التعرف على كفاءته للامامة

ص:۵۸

شروط شديدة، لأنها تؤمن بأن الامام لا يكون اماما إلا إذا كان أعلم علماء عصره.

د- ان المدرسة و قواعدها الشعبية كانت تقدم تضحيات كبيرة فى سبيل الصمود على عقيدتها فى الامامة، لأنها كانت فى نظر الخلافة المعاصرة لها تشكل خطا عدائيا، و لو من الناحية الفكرية على الأقل، الأمر الذى أدى إلى قيام السلطات وقتئذ و باستمرار تقريبا حملات من التصفية و التعذيب، فقتل من قتل، و سجن من سجن، و مات فى ظلمات المعتقلات المئات. و هذا يعنى ان الاعتقاد بامامة أئمة أهل البيت كان يكلفهم عاليا و لم يكن له من الاغراءات سوى ما يحسّ به المعتقد أو يفترضه من التقرب إلى اللّه تعالى و الزلفى عنده.

ه- ان الأئمة الذين دانت هذه القواعد لهم بالامامة لم يكونوا معزولين عنها و لا متقوقعين فى بروج عالية

ص:٥٩

شأن السلاطين مع شعوبهم، و لم يكونوا يحتجبون عنهم إلا ان تحجبهم السلطة الحاكمة بسجن أو نفى، و هذا ما نعرفه من خلال العدد الكبير من الرواة و المحدثين عن كل واحد من الأئمة الاحد عشر و من خلال ما نقل من المكاتبات التى كانت تحصل بين الامام و معاصريه و ما كان الامام يقوم به من اسفار من ناحية، و ما كان يبثه من وكلاء فى مختلف انحاء العالم الاسلامى من ناحية أخرى و ما كان قد اعتاده الشيعة من تفقد أئمتهم و زيارتهم فى المدينة المنورة عند ما يؤمون الديار المقدسة من كل مكان لاداء فريضة الحج، كل ذلک يفرض تفاعلا مستمرا بدرجة واضحة بين الامام و قواعده الممتدة فى ارجاء العالم الإسلامى بمختلف طبقاتها من العلماء و غيرهم.

و- ان الخلافة المعاصرة للأئمة (ع) كانت تنظر إليهم و إلى زعامتهم الروحية و الامامية بوصفها مصدر

ص:٦٠

خطر كبير على كيانها و مقدراتها، و على هذا الاساس بذلت كل جهودها فى سبيل تفتيت هذه الزعامة و تحملت فى سبيل ذلک كثيرا من السلبيات، و ظهرت احيانا بمظاهر القسوة و الطغيان حينما اضطرها تأمين مواقعها إلى ذلک، و كانت حملات الاعتقال و المطاردة مستمرة للأئمة أنفسهم على الرغم مما يخلفه ذلک من شعور بالألم أو الاشمئزاز عند المسلمين و للناس الموالين على اختلاف درجاتهم.

إذا أخذنا هذه النقاط الست بعين الاعتبار، و هى حقائق تاريخية لا تقبل الشک، أمكن أن نخرج بنتيجة و هى: ان ظاهرة الامامة المبكرة كانت ظاهرة واقعية و لم تكن و هما من الأوهام، لأن الامام الذى يبرز على المسرح و هو صغير فيعلن عن نفسه اماما روحيا و فكريا للمسلمين، و يدين له بالولاء و الامامة كل ذلک التيار الواسع لا بد أن يكون على قدر واضح و ملحوظ بل و كبير من العلم و المعرفة وسعة الأفق و التمكن من الفقه

ص:٦١

و التفسير و العقائد، لأنه لو لم يكن كذلک لما أمكن أن تقتنع تلک القواعد الشعبية بامامته مع ما تقدم من أن الأئمة كانوا فى مواقع تتيح لقواعدهم التفاعل معهم و للأضواء المختلفة، ان تسلط على حياتهم و موازين شخصيتهم. فهل ترى ان صبيا يدعو إلى

امامة نفسه و ينصب منها علما للإسلام و هو على مرأى و مسمع من جماهير قواعده الشعبية فتؤمن به و تبذل فى سبيل ذلک الغالى من أمنها و حياتها بدون أن تكلف نفسها اكتشاف حاله و بدون أن تهزها ظاهرة هذه الامامة المبكرة لاستطلاع حقيقة الموقف و تقييم هذا الصبى الامام؟ وهب ان الناس لم يتحر كوا لاستطلاع الموقف، فهل يمكن أن تمر المسألة أياما و شهورا بل اعواما دون أن تتكشف الحقيقة على الرغم من التفاعل الطبيعى المستمر بين الصبى الامام و سائر الناس؟ و هل من المعقول أن يكون صبيا فى فكره و علمه حقا ثم لا يبدو ذلک من خلال هذا التفاعل الطويل؟

ص:۶۲

و إذا افترضنا ان القواعد الشعبية لامامة أهل البيت لم يتح لها أن تكتشف واقع الأمر فلما ذا سكتت الخلافة القائمة و لم تعمل لكشف الحقيقة إذا كانت فى صالحها؟

و ما كان أيسر ذلک على السلطة القائمة لو كان الامام الصبى صبيا فى فكره و ثقافته كما هو المعهود فى الصبيان، و ما كان أنجحه من اسلوب ان تقدم هذا الصبى إلى شيعته و غير شيعته على حقيقته و تبرهن على عدم كفاءته للامامة و الزعامة الروحية و الفكرية. فلئن كان من الصعب الاقناع بعدم كفاءة شخص فى الأربعين أو الخمسين قد احاط بقدر كبير من ثقافة عصره لتسلم الامامة فليس هناک صعوبة فى الاقناع بعدم كفاءة صبى اعتيادى مهما كان ذكيا و فطنا للامامة بمعناها الذى يعرفه الشيعة الاماميون، و كان هذا أسهل و أيسر من الطرق المعقدة و أساليب القمع و المجازفة التى انتهجتها السلطات وقتئذ.

ان التفسير الوحيد لسكوت الخلافة المعاصرة، عن

ص:۶۳

اللعب بهذه الورقة هو انها أدركت ان الامامة المبكرة ظاهرة حقيقية و ليست شيئا مصطنعا.

و الحقيقة انها أدركت ذلک بالفعل بعد ان حاولت أن تلعب بتلک الورقة فلم تستطع، و التأريخ يحدثنا عن محاولات من هذا القبيل و فشلها بينما لم يحدثنا اطلاقا عن موقف تزعزعت فيه ظاهرة الامامة المبكرة أو واجه فيه الصبى الامام احراجا يفوق قدرته أو يزعزع ثقة الناس فيه.

و هذا معنى ما قلناه من أن الامامة المبكرة ظاهرة واقعية فى حياة أهل البيت و ليست مجرد افتراض، كما ان هذه الظاهرة الواقعية لها جذورها و حالاتها المماثلة فى تراث السماء الذى امتد عبر الرسالات و الزعامات الربانية و يكفى مثالا لظاهرة الامامة المبكرة فى التراث الربانى لأهل البيت (ع) يحيى (ع) إذ قال اللّه سبحانه و تعالى:

يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْناهُ

ص:۶۴

الْحُكْمَ صَبِيًّا[۲].

و متى ثبت ان الامامة المبكرة ظاهرة واقعية و متواجدة فعلا فى حياة أهل البيت لم يعد هناک اعتراض فيما يخصّ امامة المهدى «عليه السلام» و خلافته لأبيه و هو صغير.

ص:۶۵

۴- كيف نؤمن بأن المهدى قد وجدا

ص:۶۶

و نصل الآن إلى السؤال الرابع و هو يقول: هب ان فرضية القائد المنتظر ممكنة بكل ما تستبطنه من عمر طويل و امامة مبكرة و غيبة صامتة فان الامكان لا يكفى لاقتناع بوجوده فعلا. فكيف نؤمن فعلا بوجود المهدى؟ و هل تكفى بضع روايات تنقل فى بطون الكتب عن الرسول الاعظم (ص) للاقتناع الكامل بالامام الثانى عشر على الرغم مما فى هذا الافتراض من غرابة و خروج عن المالوف بل كيف يمكن أن نثبت ان للمهدى وجودا تاريخيا حقا و ليس مجرد افتراض توفرت ظروف نفسية لتثبيته فى نفوس عدد كبير من الناس؟

و الجواب: ان فكرة المهدى بوصفه القائد المنتظر لتغيير العالم الى الافضل قد جاءت فى احاديث الرسول الاعظم عموما و فى روايات أئمة أهل البيت خصوصا،

ص:۶۷

و أكدت فى نصوص كثيرة بدرجة لا يمكن أن يرقى إليها الشک، و قد أحصى أربعمائة حديث عن النبى (ص) من طرق اخواننا أهل السنة[۳] كما أحصى مجموع الأخبار الواردة فى الامام المهدى من طرق الشيعة و السنة فكان أكثر من ستة آلاف رواية[۴]، و هذا رقم احصائى كبير لا يتوفر نظيره فى كثير من قضايا الإسلام البديهية التى لا يشک فيها مسلم عادة.

و اما تجسيد هذه الفكرة فى الامام الثانى عشر «عليه الصلاة و السلام» فهذا ما توجد مبررات كافية و واضحة للاقتناع به.

و يمكن تلخيص هذه المبررات فى دليلين: أحدهما إسلامى و الآخر علمى.

فبالدليل الإسلامى نثبت وجود القائد المنتظر،

---

[۲] (۱) سورة مريم آية ۱۲.

[۳] (۱) يلاحظ كتاب(المهدى) للسيد« العم» الصدر قدس اللّه روحه الذكية.

[۴] (۲) يلاحظ كتاب منتخب الأثر فى الامام الثانى عشر للشيخ لطف اللّه الصافى.

و بالدليل العلمى نبرهن على ان المهدى ليس مجرد اسطورة و افتراض بل هو حقيقة ثبت وجودها بالتجربة التاريخية.

أما الدليل الاسلامى، فيتمثل فى مئات الروايات الواردة عن رسول اللّه (ص) و الأئمة من أهل البيت (ع) و التى تدل على تعيين المهدى و كونه من أهل البيت و من ولد فاطمة و من ذرية الحسين و انه التاسع من ولد الحسين و ان الخلفاء اثنا عشر، فان هذه الروايات تحدد تلك الفكرة العامة و تشخيصها فى الامام الثانى عشر من أئمة أهل البيت، و هى روايات بلغت درجة كبيرة من الكثرة و الانتشار على الرغم من تحفظ الأئمة «عليهم السلام» و احتياطهم فى طرح ذلک على المستوى العام وقاية للخلف الصالح من الاغتيال أو الاجهاز السريع على حياته.

و ليست الكثرة العددية للروايات هى الأساس الوحيد لقبولها، بل هناک اضافة إلى ذلک مزايا و قرائن تبرهن على صحتها، فالحديث النبوى الشريف عن الأئمة أو

الخلفاء أو الأمراء بعده و انهم اثنى عشر اماما أو خليفة أو أميرا- على اختلاف متن الحديث فى طرقه المختلفة- قد أحصى بعض المؤلفين رواياته فبلغت أكثر من مائتين و سبعين رواية مأخوذة من أشهر كتب الحديث عند الشيعة و السنة بما فى ذلک البخارى و مسلم و الترمذى و أبى داود و مسند أحمد و مستدرک الحاكم على الصحيحين و يلاحظ هنا أن البخارى الذى نقل هذا الحديث كان كان معاصرا للإمام الجواد و الامامين الهادى و العسكرى و فى ذلک مغزى كبير، لأنه يبرهن على ان هذا الحديث قد سجل عن النبى (ص) قبل أن يتحقق مضمونه و تكتمل فكرة الأئمة الاثنى عشر فعلا، و هذا يعنى انه لا يوجد أى مجال للشک فى أن يكون نقل الحديث متأثرا بالواقع الامامى الاثنى عشرى و انعكاسا له، لأن الاحاديث المزيفة التى تنسب إلى النبى (ص) و هى انعكاسات أو تبريرات لواقع متأخر زمنيا لا تسبق فى ظهورها و تسجيلها فى كتب الحديث ذلک الواقع الذى تشكل

انعكاسا له، فما دمنا قد ملكنا الدليل المادى على ان الحديث المذكور سبق التسلسل التاريخى للأئمة الاثنى عشر، و ضبط فى كتب الحديث قبل تكامل الواقع الامامى الاثنى عشرى، أمكننا أن نتأكد من أن هذا الحديث ليس انعكاسا لواقع و إنما هو تعبير عن حقيقة ربانية نطق بها من لا ينطق عن هوى، فقال: ان الخلفاء بعدى اثنى عشر. و جاء الواقع الامامى الاثنى عشرى ابتداء من الامام على و انتهاء بالمهدى ليكون التطبيق الوحيد المعقول لذلک الحديث النبوى الشريف.

و أما الدليل العلمى، فهو يتكون من تجربة عاشتها أمة من الناس فترة امتدت سبعين سنة تقريبا و هى فترة الغيبة الصغرى. و لتوضيح ذلک نمهد باعطاء فكرة موجزة عن الغيبة الصغرى:

ان الغيبة الصغرى تعبر عن المرحلة الأولى من امامة القائد المنتظر «عليه الصلاة و السلام» فقد قدّر لهذا

ص:۷۱

الامام منذ تسلمه للامامة أن يستتر عن المسرح العام و يظل بعيدا باسمه عن الاحداث و ان كان قريبا منها بقلبه و عقله، و قد لوحظ ان هذه الغيبة إذا جاءت مفاجأة حققت صدمة كبيرة للقواعد الشعبية للامامة فى الأمة الإسلامية، لأن هذه القواعد كانت معتادة على الاتصال بالامام فى كل عصر و التفاعل معه و الرجوع إليه فى حل المشاكل المتنوعة فإذا غاب الامام عن شيعته فجأة و شعروا بالانقطاع عن قيادتهم الروحية و الفكرية سببت هذه الغيبة المفاجأة الاحساس بفراغ دفعى هائل قد يعصف بالكيان كله و يشتت شمله، فكان لا بد من تمهيد لهذه الغيبة لكى تألفها هذه القواعد بالتدريج و تكيف نفسها شيئا فشيئا على أساسها، و كان هذا التمهيد هو الغيبة الصغرى التى اختفى فيها الامام المهدى عن المسرح العام غير انه كان دائم الصلة بقواعده و شيعته عن طريق و كلائه و نوابه و الثقات من أصحابه الذين يشكلون همزة الوصل بينه و بين الناس المؤمنين بخطه الامامى. و قد

ص:۷۲

أشغل مركز النيابة عن الامام فى هذه الفترة أربعة ممن أجمعت تلك القواعد على تقواهم و ورعهم و نزاهتهم التى عاشوا ضمنها و هم كما يلى:

۱- عثمان بن سعيد العمرى.

۲- محمد بن عثمان بن سعيد العمرى.

۳- ابو القاسم الحسين بن روح.

۴- ابو الحسن على بن محمد السمرى.

و قد مارس هؤلاء الأربعة مهام النيابة بالترتيب المذكور و كلما مات أحدهم خلفه الآخر الذى يليه بتعيين من الامام المهدى (ع).

و كان النائب يتصل بالشيعة و يحمل اسئلتهم إلى الامام، و يعرض مشاكلهم عليه و يحمل إليهم اجوبته شفهية أحيانا و تحريرية فى كثير من الأحيان، و قد وجدت الجماهير التى فقدت رؤية امامها العزاء و السلوة فى هذه المراسلات و الاتصالات غير المباشرة. و لاحظت

ص:۷۳

ان كل التوقيعات و الرسائل كانت ترد من الامام المهدى (ع) بخط واحد و سليقة واحدة طيلة نيابة النواب الأربعة التى استمرت حوالى سبعين عاما، و كان السمرى هو آخر النواب فقد اعلن عن انتهاء مرحلة الغيبة الصغرى التى تتميز بنواب معينين، و ابتداء الغيبة الكبرى التى لا يوجد فيها اشخاص معينون بالذات للوساطة بين الامام القائد و الشيعة، و قد عبر التحول من الغيبة الصغرى إلى الغيبة الكبرى عن تحقيق الغيبة الصغرى لأهدافها و انتهاء مهمتها لأنها حصنت الشيعة بهذه العملية التدريجية عن الصدمة و

الشعور بالفراغ الهائل بسبب غيبة الامام، و استطاعت أن تكيف وضع الشيعة على أساس الغيبة و تعدهم بالتدريج لتقبل فكرة النيابة العامة عن الامام و بهذا تحولت النيابة من أفراد منصوصين إلى خط عام و هو خط المجتهد العادل البصير بأمور الدنيا و الدين تبعا لتحول الغيبة الصغرى إلى غيبة كبرى.

ص:٧۴

و الآن بامكانک أن تقدر الموقف فی ضوء ما تقدم لکی تدرک بوضوح ان المهدی حقيقة عاشتها أمة من الناس و عبر عنها السفراء و النواب طيلة سبعين عاما من خلال تعاملهم مع الآخرين، و لم يلحظ عليهم أحد كل هذه المدة تلاعبا فی الكلام أو تحايلا فی التصرف أو تهافتا فی النقل. فهل تتصور- بربک- ان بامكان اكذوبة أن تعيش سبعين عاما و يمارسها أربعة على سبيل الترتيب كلهم يتفقون عليها و يظلون يتعاملون على أساسها و كأنها قضية يعيشونها بأنفسهم و يرونها بأعينهم دون أن يبدر منهم أی شیء يثير الشک و دون أن يكون بين الأربعة علاقة خاصة متميزة تتيح لهم نحوا من التواطؤ و يكسبون من خلال ما يتصف به سلوكهم من واقعية ثقة الجميع و إيمانهم بواقعية القضية التی يدعون انهم يحسونها و يعيشون معها؟! لقد قيل قديما ان حبل الكذب قصير، و منطق الحياة يثبت أيضا ان من المستحيل عمليا بحساب الاحتمالات أن

ص:٧۵

تعيش اكذوبة بهذا الشكل و كل هذه المدة و ضمن كل تلک العلاقات و الأخذ و العطاء ثم تكسب ثقة جميع من حولها.

و هكذا نعرف ان ظاهرة الغيبة الصغرى يمكن أن تعتبر بمثابة تجربة علمية لاثبات ما لها من واقع موضوعی و التسليم بالامام القائد بولادته و حياته و غيبته و اعلانه العام عن الغيبة الكبرى التی استتر بموجبها عن المسرح و لم يكشف نفسه لأحد.

ص:٧۶

۵- لما ذا لم يظهر القائد اذن؟

ص:٧٧

لما ذا لم يظهر القائد إذن طيلة هذه المدة؟ و إذا كان قد أعدّ نفسه للعمل الاجتماعی، فما الذی منعه عن الظهور على المسرح فی فترة الغيبة الصغرى أو فی اعقابها بدلا من تحويلها إلى غيبة كبرى، حيث كانت ظروف العمل الاجتماعی و التغييرى، وقتئذ أبسط و أيسر و كانت صلته الفعلية بالناس من خلال تنظيمات الغيبة الصغرى تتيح له أن يجمع صفوفه و يبدأ عمله بداية قوية و لم تكن القوى الحاكمة من حوله قد بلغت الدرجة الهائلة من القدرة و القوة التی بلغتها الانسانية بعد ذلک من خلال التطور العلمی و الصناعی؟

و الجواب: ان كل عملية تغيير اجتماعی يرتبط نجاحها بشروط و ظروف موضوعية لا يتأتى لها أن تحقق هدفها إلا عند ما تتوفر تلک الشروط و الظروف.

ص:۷۸

و تتميز عمليات التغيير الاجتماعى التى تفجرها السماء على الأرض بأنها لا ترتبط فى جانبها الرسالى بالظروف الموضوعية، لأن الرسالة التى تعتمدها عملية التغيير هنا ربانية و من صنع السماء لا من صنع الظروف الموضوعية، و لكنها فى جانبها التنفيذى تعتمد الظروف الموضوعية و يرتبط نجاحها و توقيتها بتلك الظروف. و من أجل ذلک انتظرت السماء مرور خمسة قرون من الجاهلية حتى انزلت آخر رسالاتها على يد النبى محمد (ص) لأن الارتباط بالظروف الموضوعية للتنفيذ كان يفرض تأخرها على الرغم من حاجة العالم إليها منذ فترة طويلة قبل ذلک.

و الظروف الموضوعية التى لها أثر فى الجانب التنفيذى من عملية التغيير منها ما يشكل المناخ المناسب و الجو العام للتغيير المستهدف، و منها ما يشكل بعض التفاصيل التى تتطلبها حركة التغيير من خلال منعطفاتها التفصيلية. فبالنسبة إلى عملية التغيير التى قادها متلا لينين فى روسيا بنجاح كانت ترتبط بعامل من قبيل قيام

ص:۷۹

الحرب العالمية الأولى و تضعضع القيصرية، و هذا ما يساهم فى ايجاد المناخ المناسب لعملية التغيير، و كانت ترتبط بعوامل أخرى جزئية و محدودة من قبيل سلامة لينين مثلا فى سفره الذى تسلل فيه إلى داخل روسيا و قاد الثورة، إذ لو كان قد اتفق له أى حادث يعيقه لكان من المحتمل أن تفقد الثورة بذلک قدرتها على الظهور السريع على المسرح.

و قد جرت سنة اللّه تعالى التى لا تجد لها تحويلا فى عمليات التغيير الربانى على التقيد من الناحية التنفيذية بالظروف الموضوعية التى تحقق المناخ المناسب و الجو العام لا جاح عملية التغيير، و من هنا لم يأت الإسلام إلا بعد فترة من الرسل و فراغ مرير استمرّ قرونا من الزمن.

فعلى الرغم من قدرة اللّه- سبحانه و تعالى- على تذليل كل العقبات و الصعاب فى وجه الرسالة الربانية و خلق المناخ المناسب لها خلفا بالاعجاز لم يشأ أن يستعمل

ص:۸۰

هذا الاسلوب، لأن الامتحان و الابتلاء و المعاناة التى من خلالها يتكامل الانسان يفرض على العمل التغييرى الربانى أن يكون طبيعيا و موضوعيا من هذه الناحية، و هذا لا يمنع عن تدخل اللّه- سبحانه و تعالى- احيانا فيما يخص بعض التفاصيل التى لا تكوّن المناخ المناسب و انما قد يتطلبها أحيانا التحرک ضمن ذلک المناخ المناسب، و من ذلک الامدادات و العنايات الغيبية التى يمنحها اللّه تعالى لأوليائه فى لحظات حرجة فيحمى بها الرسالة و إذا بنار نمرود تصبح بردا و سلاما على ابراهيم، و إذا بيد اليهودى الغادر التى ارتفعت بالسيف على رأس النبى (ص) تشل و تفقد قدرتها على الحركة، و إذا بعاصفة قوية تحتاج مخيمات الكفار و المشركين الذين احدقوا بالمدينة فى يوم الخندق و تبعث فى نفوسهم الرعب، إلا أن هذا كله لا يعدو التفاصيل و تقديم

العون فی لحظات حاسمة بعد ان کان الجو المناسب و المناخ الملائم لعملیة التغییر علی العموم قد تکوّن بالصورة الطبیعیة و وفقا للظروف الموضوعیة.

ص:۸۱

و علی هذا الضوء ندرس موقف الامام المهدی «علیه السلام» لنجد ان عملیة التغییر التی اعد لها ترتبط من الناحیة التنفیذیة کأی عملیة تغییر اجتماعی اخری بظروف موضوعیة تساهم فی توفیر المناخ الملائم لها، و من هنا کان من الطبیعی أن توقت وفقا لذلک. و من المعلوم ان المهدی لم یکن قد اعد نفسه لعمل اجتماعی محدود، و لا لعملیة تغییر تقتصر علی هذا الجزء من العالم أو ذاک، لأن رسالته التی أدخر لها من قبل اللّه- سبحانه و تعالی- هی تغییر العالم تغییرا شاملا، و اخراج البشریة کل البشریة من ظلمات الجور إلی نور العدل، و عملیة التغییر الکبری هذه لا یکفی فی ممارستها مجرد وصول الرسالة و القائد الصالح و إلا لتمت شروطها فی عصر النبوة بالذات، و إنما تتطلب مناخا عالمیا مناسبا و جوا عاما مساعدا یحقق الظروف الموضوعیة المطلوبة لعملیة التغییر العالمیة.

فمن الناحیة البشریة یعتبر شعور انسان الحضارة

ص:۸۲

بالنفاد عاملا أساسیا فی خلق ذلک المناخ المناسب لتقبل رسالة العدل الجدیدة، و هذا الشعور بالنفاد یتکون و یترسخ من خلال التجارب الحضاریة المتنوعة التی یخرج منها انسان الحضارة مثقلا بسلبیات ما بنی مدرکا حاجته إلی العون، متلفتا بفطرته إلی الغیب أو إلی المجهول.

و من الناحیة المادیة یمکن أن تکون شروط الحیاة المادیة الحدیثة أقدر من شروط الحیاة القدیمة فی عصر کعصر الغیبة الصغری علی انجاز الرسالة علی صعید العالم کله، و ذلک بما تحققه من تقریب المسافات و القدرة الکبیرة علی التفاعل بین شعوب الأرض و توفیر الأدوات و الوسائل التی یحتاجها جهاز مرکزی لممارسة توعیة لشعوب العالم و تثقیفها علی أساس الرسالة الجدیدة.

و أما ما أشیر إلیه فی السؤال من تنامی القوی و الاداة العسکریة التی یواجهها القائد فی الیوم الموعود کلما أجّل ظهوره، فهذا صحیح. و لکن ما ذا ینفع نمو

ص:۸۳

الشکل المادی للقوة مع الهزیمة النفسیة من الداخل و انهیار البناء الروحی للانسان الذی یملک کل تلک القوی و الأدوات؟ و کم من مرة فی التاریخ انهار بناء حضاری شامخ بأول لمسة غازیة لأنه کان منهارا قبل ذلک و فاقدا الثقة بوجوده و القناعة بکیانه و الاطمئنان إلی واقعه.

ص:۸۴

۶- و هل للفرد کل هذا الدور!

ص:۸۵

و نأتی إلی سؤال آخر فی تسلسل الاسئلة المتقدمة و هو السؤال الذی یقول: هل للفرد مهما کان عظیما القدرة علی انجاز هذا الدور العظیم؟ و هل الفرد العظیم إلا ذلک الإنسان الذی ترشحه الظروف لیکون واجهته له فی تحقیق حرکتها؟

و الفکرة فی هذا السؤال ترتبط بوجهة نظر معینة للتاریخ تفسره علی أساس ان الانسان عامل ثانوی فیه و القوی الموضوعیة المحیطة به هی العامل الأساسی، و فی اطار ذلک لن یکون الفرد فی أفضل الأحوال إلا التعبیر الذکی عن اتجاه هذا العامل الأساسی.

و نحن قد أوضحنا فی مواضع أخری من کتبنا المطبوعة ان التاریخ یحتوی علی قطبین. أحدهما الانسان، و الآخر القوی المادیة المحیطة به. و کما تؤثر القوی المادیة و ظروف الانتاج و الطبیعة فی الانسان یؤثر الانسان

ص:۸۶

أیضا فیما حوله من قوی و ظروف، و لا یوجد مبرر لافتراض ان الحرکة تبتدأ من المادة و تنتهی بالإنسان إلا بقدر ما یوجد مبرر لافتراض العکس، فالإنسان و المادة یتفاعلان علی مر الزمن و فی هذا الإطار بامکان الفرد أن یکون أکبر من ببغاء فی تیار التاریخ، و بخاصة حین ندخل فی الحساب عامل الصلة بین هذا الفرد و السماء.

فإن هذه الصلة تدخل حینئذ کقوة موجهة لحرکة التاریخ. و هذا ما تحقق فی تاریخ النبوات و فی تاریخ النبوة الخاتمة بوجه خاص، فان النبی محمد (ص) بحکم صلته الرسالیة بالسماء تسلم بنفسه زمام الحرکة التاریخیة و أنشأ مدا حضاریا لم یکن بامکان الظروف الموضوعیة التی کانت تحیط به أن تتمخض عنه بحال من الاحوال، کما أوضحنا ذلک فی المقدمة الثانیة للفتاوی الواضحة.

و ما أمکن أن یقع علی ید الرسول الأعظم یمکن أن یقع علی ید القائد المنتظر من أهل بیته الذی بشر به و نوه عن دوره العظیم.

ص:۸۷

۷- ما هی طریقة التغییر فی الیوم الموعود!

ص:۸۸

و نصل فی النهایة إلی السؤال الأخیر من الأسئلة التی عرضناها، و هو السؤال عن الطریقة التی یمکن أن نتصور من خلالها ما سیتم علی ید ذلک الفرد من انتصار حاسم للعدل و قضاء علی کیانات الظلم المواجهة له؟

و الجواب: المحدد على هذا السؤال يرتبط بمعرفة الوقت و المرحلة التى يقدر للامام المهدى (ع) أن يظهر فيها على المسرح و امكان افتراض ما تتميز به تلك المرحلة من خصائص و ملابسات لكى ترسم فى ضوء ذلک الصورة التى قد تتخذها عملية التغيير و المسار الذى قد تتحرک ضمنه، و ما دمنا نجهل المرحلة و لا نعرف شيئا عن ملابساتها و ظروفها فلا يمكن التنبؤ العلمى بما سيقع فى اليوم الموعود و ان امكنت الافتراضات و التصورات التى تقوم فى الغالب على أساس ذهنى لا على أسس واقعية عينيه.

ص:۸۹

و هناک افتراض أساسى واحد بالامكان قبوله على ضوء الأحاديث التى تحدثت عنه و التجارب التى لوحظت لعمليات التغيير الكبرى فى التاريخ، و هو افتراض ظهور المهدى «عليه السلام» فى أعقاب فراغ كبير يحدث نتيجة نكسة و أزمة حضارية خانقة. و ذلک الفراغ يتيح المجال للرسالة الجديدة أن تمتد و هذه النكسة تهيئ الجو النفسى لقبولها، و ليست هذه النكسة مجرد حادثة تقع صدفة فى تاريخ الحضارة الإنسانية و إنما هى نتيجة طبيعية لتناقضات التاريخ المنقطع عن اللّه- سبحانه و تعالى- التى لا تجد لها فى نهاية المطاف حلا حاسما فتشتعل النار التى لا تبقى و لا تذر و يبرز النور فى تلک اللحظة ليطفئ النار و يقيم على الأرض عدل السماء.

و سأقتصر على هذا الموجز من الأفكار تاركا التوسع فيها و ما يرتبط بها من تفاصيل إلى الكتاب القيم الذى أمامنا، فإننا بين يدى موسوعة جليلة فى الامام المهدى «عليه السلام» وضعها أحد أولادنا و تلامذتنا الأعزاء و هو العلامة البحاثة السيد محمد الصدر- حفظه اللّه

ص:۹۰

تعالى- و هى موسوعة لم يسبق لها نظير فى تاريخ التصنيف الشيعى حول المهدى «عليه السلام» فى احاطتها و شمولها لقضية الامام المنتظر من كل جوانبها، و فيها من سعة الأفق و طول النفس العلمى و استيعاب الكثير من النكات و اللفتات ما يعبر عن الجهود الجليلة الذى بذلها المؤلف فى انجاز هذه الموسوعة الفريدة. و إنى لأحس بالسعادة و أنا أشعر بما تملأه هذه الموسوعة من فراغ و ما تعبر عنه من فضل و نباهة و ألمعية و أسأل المولى- سبحانه و تعالى- أن يقر عينى به و يرينى فيه علما من أعلام الدين. و الحمد للّه رب العالمين و الصلاة و السلام على محمد و آله الطاهرين. و قد وقع الابتداء فى كتابة هذه الوريقات فى اليوم الثالث عشر من جمادى الثانية سنة ۱۳۹۷ ه و وقع الفراغ منها عصر اليوم السابع عشر من الشهر نفسه.

و اللّه ولى التوفيق.

محمد باقر الصدر النجف الأشرف